٧- وطني في المنفى

■ عباس حلمي باشا الثاني

إسطنبول

مايو ١٩١٤م

يشعر باضطراب شديد، لا يعلم لماذا يراوده هذا الإحساس المقيت، منذ أن صعد يخت جده إسماعيل "محروسة"، وتقلقله هذه الرحلة، هو يعلم أن هذا المحتل الخسيس لن يتركه ينعم برغد الحياة، منذ وصوله من فرنسا وهو يشعر بالاختناق، اقترب منه شاب يبدو عليه الارتياب، ملامحه تفضح مصريته، اقترب أكثر، أخرج مسدسين وبدأ يمطره بأعيرتهما، تناثرت الدماء من كل جسده، ولكنه مثابر، قبض على يديه، احتمل ألمه الذي صاحبه من جراء هذه الطلقات، كادت أن تودي بحياته، دفع هذا الشاب المسمى "محمود مظهر" بعيدا بكل ما يملك من قوة، تفحص مكان مصحفه، تلهف على كيس نقوده، إنهما سالمين، أمسك قلمه ودون في مذكراته"

"شعرت بانقباض صدر قبلها، وعندما رأيت الشاب يصوب المسدس إلي تمكنت من الإمساك بيده الممسكة بالمسدس ودفعه بعيدًا في الوقت الذي لم يتحرك فيه الحرس إلا متأخرا وأصابني بعض الرصاص ولكن في مناطق غير مميتة وتناثرت الدماء على ملابسي وكيس نقودي ولكنها لم تصل إلى المصحف الذي كنت أحمله وهذا من لطف الله وحتى لو وصلت إليه لما مس هذا من قداسته"

ألم شديد اعتصر الرجل، ليس ألما جسديًا فقط بل ألم نفسي، تساءل كثيرا ما الذي فعلته كي يحاول المصريون الانتقام مني بهذه البشاعة، ما الذي فعلته كي يتربص بي هؤلاء، ما الذي أفعله الآن، منذ أن وطأت قدماي هذه الأرض وليس همي في الحياة سوى طرد هذا المستعمر الغبي الغاشم، هكذا هو دائما في حالة حرب وصراع، له باع طويل في التناحر مع الإنجليز، يكرههم ويكرهونه، اشتبك معهم في معارك كثيرة، خسر كثيرا وانتصر كثيرا، معارك خاضها بكل ما يملك من قوة، خاف على ضياع حقوق مصر.

حاول أن يهادنهم، استمال جورست[1]، ولكن الأمر شديد القسوة، هم دائمًا يحاولون التقليل منه ومن سلطاته، يريدون أن يذلوه كما فعلوا كثيرا، استطاعوا أن يرضخوه لأوامرهم، أرغموه على أن يعترف بأن الجند الإنجليز هم خير جنود الأرض، كرومر هذا فعل به الكثير والكثير، يكرهه منذ أتى إلى أرض النيل، أما كتشنر هذا ألد أعدائه، بل ألد أعداء المصريين، منذ أن زج بالأهالي في السجون وهو يمقته بشدة، حاكم يحكم حاكمًا، البلاد في كرب عظيم، ها هو الآن يضحك وتنفلج أساريره، منذ أن أتته تلك الأخبار التي أخرت غريمه عباس من الرجوع لمصر، أما عباس فيريد أن تلتئم جراحه، يريد أن ينعم ببعض الراحة، لكن هذا هو مصيره وهذه هي لعنته.

١٩ ديسمبر ١٩١٤م

" يعلن وزير الخارجية لدى جلالة ملك بريطانيا العظمى أنه بالنظر لإقدام سمو عباس حلمي باشا خديوي مصر السابق على الانضمام لأعداء جلالة الملك رأت حكومة جلالته خلعه من منصب الخديوي"

[1] ألدون جورست: هو المندوب السامي البريطاني في مصر وتولى المنصب بعد عزل اللورد كرومر

لا يريد الاعتراف بالأمر، يحسب أن وراءه ظهرًا يحميه، هو الذي شجعه، جعله يتحداهم، حاول كثيرا استرضاء سلطانه العثماني؛ يحسبه حمايته ودرعه المتين ولكن وا أسفاه، لم يفعل له شيئا، تركه يغني وحده على ليلاه.

دخل عليه إسماعيل باشا صدقي، ظل يفاوضه بأن يترك الحكم دون مشكلات، أرسلوه له يعلمون أنه لن يترك الأمر بسهولة، فطالما حارب بغياهم، فهو كثيرا ما يدحض مسعاهم، يعرف اللورد كتشنر أنه ليس بلقمة سائغة، يعلم تماما أن له أتباعًا في كل أرجاء المحروسة، مصر شمالها وجنوبها يشهدون له بالوطنية التامة، حتى أن مصطفى كامل كان له معينا، أرسله سابقا لفرنسا وإنجلترا حتى رفتوا كرومر من منصبه، حاول كثيرا أن يبتعد عن مشاكلهم ولكنه تأتيه المشكلات من حيث لا يدري.

هؤلاء المحتلون أذاقوا شعبه ألوانا من العذاب، شنقوهم في دنشواي[1] وسجنوهم من الإسكندرية، منذ أن تسلم مضمار الحكم واعتلى عرشه، وهو يحاربهم، طرد مصطفى باشا فهمي من عباءة النظارة، رآه مواليًا لهم، أراد أن يكسر ذراعهم فدمروا عرشه، لا يجد من الأمر مفرًا، انتهت حياته كحاكم لأرض الحضارات، فضل أن يبتعد عن مضمار المشكلات، أخذ الثلاثين ألفًا من صدقي باشا وتنازل متعهدًا بعدم العودة.

[1] حادثة دنشواي: هي قرية صغيرة في قرى الدلتا. في ١٣ يونيو سنة ١٩٠٦م وصل الى القرية بعض الضباط الإنجليز ليصطادوا الحمام فأصابوا امرأة مصرية فهجم المصريون من الفلاحين على الضباط فجرحوا أحدهم. فقام الجنود البريطانيون بقتل أحد الفلاحين انتقاما. وبعد أيام شكلت محكمة وحكم على أربعة من الفلاحين بالإعدام بصورة علنية. أثارت أحكام دانشوي القاسية موجة من السخط بين المصريين وكشف لهم حقيقة الاحتلال فازدادت مطالبهم وإصرارهم على الجلاء الفوريّ. وبعد أن فضحت القضية في أنحاء العالم إعلاميًا وأدى ذلك إلى استقالة اللورد كرومر من منصبه سنة ١٩٠٧ وإصدار العفو عن سجناء دنشواي

١٩ ديسمبر ١٩٤٤م

الأريكة الخديوية راحت مهب الرياح، حل محلها السلطنة، دائما يعرف هو أخطاءه منذ أن فقد كرسيه، وهو يأتي بأطراف أخطائه، الخديعة دمرته والعثمانيون خذلوه، لمَ لا؟ وهم يكرهون العلويين منذ أن أطاح بهم ملهمه العظيم إبراهيم باشا، عمه الآن يقبع سلطانا في البلاد، لم يكن يحلم بالأمر، أتاه الحكم من السماء، الحرب العالمية تشتعل والدمار يحل بالعالم والإنجليز مسيطرون على كل شيء في المحروسة.

يجتمع تشرشل بالإسكندرية بفندق سيسل يريد تحديد مصير منطقة الشرق الأوسط، يستغرب بشده من هتافات الشعب السكندري، الشعب بالكامل استفاق ووعى وعلم بأن عباس كان وطنيًا، الصيحات تعلو على الشاطئ، المصريون يهتفون

" الله حي عباس جاي".

هذا اليوم أتعس أيامه، يوم نحسه، هو الآن جثة هامدة في منفاه الاختياري، سويسرا هذه بلد أحبها عاش فيها ومات على أرضها، أوصى أن يوارى جسده بالمحروسة فدفن بقلبها، فيها ذاكرته وحياته، فيها إخفاقاته وانتصاراته، فيها حربه ضد المغتصبين، فطوت الرمال صفحته، وبقي خالدا في التاريخ.

* * *

■ ضريح عباس حلمي الثاني